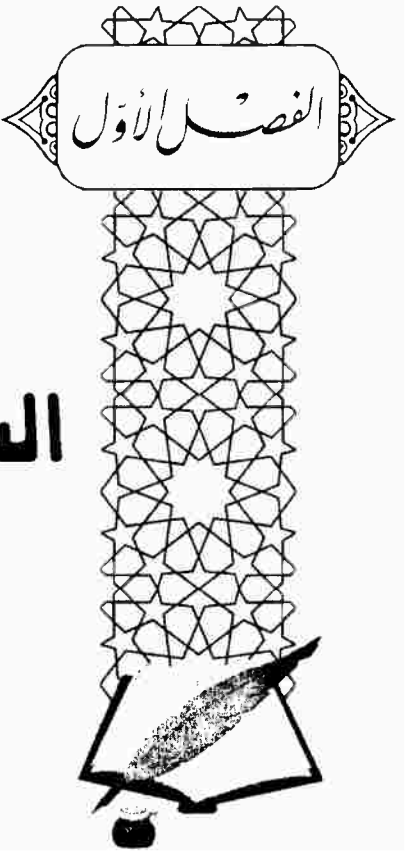

البلاد والمدن والقرى

الفصل الأول

البلاد والمدن والقرى

هناك مجموعة من المدن والقرى والبلدان التى جاء ذكرها صراحة فى كتاب الله تعالى.. هذه الأماكن ومن فضل الله ما زال بعضها موجوداً بيننا، وخاصة فى عالمنا العربى، وإن أصابها الزمن ببعض التغيرات الجغرافية وذلك بحكم عوامل الزمن وعوامل الطبيعة.

ولو تدبرنا الأمر وما جاء بشأن ذلك فى كتاب الله سوف تصيبنا الدهشة من وجود تلك الأماكن وما لعبته من أدوار تاريخية ودينية كانت وما زالت على جانب كبير من الأهمية.

وبنظرة مبسطة وسريعة على أسماء هذه الأماكن سوف نكتشف أنها ترتبط ببلاد وأماكن لا يزال تأثيرها كبيراً على مسيرة حياة البشر، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر؛ واستعراضنا لأسماء تلك البلدان سوف يبين ذلك لنا ولكم أكثر وبوضوح شديد.

إن من أشهر هذه البلدان وتلك الأماكن التى جاء ذكرها صراحة فى القرآن الكريم تحتل مدن وقرى الحجاز الصدارة بحكم اقترابها واقترانها برسالة الإسلام وبدعوة نبى الله محمد عليه الصلاة والسلام، مثال ذلك مكة أو بكة ثم المدينة أو يثرب والحجر والأحقاف وبدر وحنين.

وإذا ما تركنا الحجاز وأهلها وأماكنها المشهورة فى كتاب الله سوف نجد بلاداً أخرى مذكورة صراحة فى هذا الكتاب العظيم مثل سبأ وعدن والعقبة وغيرها، وأخيراً أو أولاً تأتى مصر من بين هذه المدن المشهورة فى كتاب الله، وكذلك سيناء. ومن بعدهما تأتى بابل التى جاء ذكرها أيضاً فى القرآن الكريم.

والمدقق فيما ذكرناه من أسماء عن هذه المدن وتلك القرى سوف يكتشف فعلاً قيمة وأهمية وعظمة ودور كل من هذه الأمكنة التى تم الإفصاح عنها صراحة.. فى مقابل أماكن أخرى أغفل الله تعالى ذكرها لنا واكتفى القرآن الكريم بالإشارة إليها سواء بالتلميح أو بالوصف، وذلك لحكمته التى تتجلى لكل عصر ولكل جيل، فى معانى كثيرة وأدوار أكبر.

ومايجدر الإشارة إليه فى هذا السياق.. أن هذه البلدان وتلك القرى كانت فى الماضى مجرد كيانات صغيرة، ولكل كيان منها حاكم أو أمير أو رئيس أو زعيم، وهى التى دخلت جميعها فى عصرنا الحاضر فى إطار ما يسمى بالقوميات إلى أن تحولت إلى كيان كبير يسمى إما جمهورية أو مملكة أو إمارة.

ومن عظمته وتدبير رب العالمين نجد أن هذه الأماكن المعنية بحديثنا لم تختفى أو تذوب فى داخل تلك الكيانات الكبيرة بل ظلت قائمة على حالها شامخة حتى تروى لنا عبر الأزمنة دورها الذى شاركت من خلاله فى خدمة دين الله وأنبيائه ورسله. وما زلنا نشير إليها باسمها باعتبارها علم على ما قامت به .

ولسنا فى حاجة إلى أن نقول مثلاً إن مصر ما زالت موجودة بيننا، وكذلك بابل وغيرها، وإن أصبحت ضمن نسيج آخر يحوى غيرها من المدن داخل منظومة وطنية أو قومية.

هذا الوضع الجديد لم يغير من تاريخها شىء .. وإن تغيرت بعض معالمها بفعل عوامل الزمن وعاديات الطبيعة.

وحين نستعرض سوياً هذه البلدان مجردة مما لحق به من ألفاظ ارتبطت بالوطنية أو القومية، سوف نشعر بالمزيد من الرغبة فى ضرورة أن نقف على دورها فى سياق التاريخ الدينى لرسالات السماء..

وهذه المدن وتلك القرى كما سبق وذكرنا منها مكة أو بكة ويثرب أو المدينة، والإحقاف والحجر وبدر والعقبة وحنين ثم مصر ومدين وسيناء، وسبأ.

ولسوف يكون لنا مع كل من هذه البلدان وقفة تطول أو تقصر حسبما يتوافر لدينا بخصوصها من معلومات تاريخية وجغرافية ودينية. إضافة إلى إبراز ما جاء

بشأنهـا فى القرآن الكريم من آيات وسور بينات، وذلك من أجل تحـقيق المنهج الذى ارتضيناه سوياً من قبل.

ولقد توقفنا كثيراً مع العقل والنفس أمام كيفية استعراضنا لهذه البلدان، وهل يتم ذلك وفق منهج الموسـوعات والمعـاجم اللغوية التى تعـتمـد فى عرض مـوادها على طريقة الحروف الهجائية أم نلجأ إلى بيان أهمية المكان الذى يحتوى على هذه البلدان ودورة فى رسالات الأنبياء؟! أم نلجأ إلى طرق أخـرى ترتبط سواء بشكل مباشر أو غير مـباشر بالتقسـيمات الجغرافـية المتعارف عليـها حالياً؟! أو بارتباطهـا بالتسلسل التاريخى للأحداث التى شـهدتها معظم هذه البلدان؟ إن هذه الأسئلة قـد أوقعتنا فى حيرة لأن، الهدف من وراء ما نقوم به هو تقـديم هذه الأماكن ودورها ومواقفها وما جاء بشـأنها فى كتاب الله بصـرف النظر عن التمسك بالـقواعد المرعيـة فى مثل هذه الأحوال والخاصة بالعمل فى الموسوعات العلمية أو اللغوية.

وربما سـوف نلجأ فى بعض الأحـيان إلى الاعـتمـاد على الحروف الهـجائيـة فى عرضنا لهذه الأماكن وما جاء بشأنها فى كتاب الله باعتبارها أماكن مشهورة نود إلقاء الأضواء المبهرة عليها.

وبشكل عام فإن طريقـة عرضنا لمادة هذه الأوراق سوف تحددها اعتبـارات كثيرة. حتى أن المتابع لنا ربما لن يلحظ اسـتخدامنا للحروف الهجائية التى سـوف نلجأ إليها لأنها سرعان ما تذوب فى طريقة الكتابة التى تعـتمد فى الأساس على سرد أكبر قدر من المعلومـات المتاحـة عن هذه الأماكن سـواء تاريخيـا أو جغـرافيـاً أو حتى دينـياً، مضاف إليها أو مستهل بها حديث القرآن الكريم وآياته وسوره الشريفة.

وإليكم البداية المختارة وفق منهجنا السابق الإشارة إليه.

** بدر: وأولى المعارك الإسلامية:

لقد رأينـا من قبل الإشارة إلى مـوقع هذا المكان وأهميـته التـاريخية والجـغرافـية ضـرورة أن نعـرف الشىء اليـسـيـر عن وجـوده فى القـرآن الكريم وفى أى السـور والآيات جاء ذكره؟

ومما لاحظناه فى هذا السياق أن بدر كمكان مشهور فى كتاب الله قد جاء ذكره فى

آية واحدة فى سورة آل عمران وفى قوله تعالى : ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ الآية (١٢٣).

كما جاء فى معجم ألفاظ القرآن الكريم والذى أصدره مجمع اللغة العربية فى مادة حرف «الدال» عن بدر: إن بدراً هى موضع قرب المدينة .. قامت فيه معركة بين المسلمين وكفار مكة عقب الهجرة وقد نصر الله فيها المسلمون على قلتهم» (١)

أما من حيث ما جاء فى الموسوعات التاريخية عن بدر ففيه كلام كثير ومن بين ما جاء ذكره فى هذا الشأن قولهم : إن بدراً هى أولى غزوات النبىﷺ؛ وتعرف باسم بدر الكبرى. وبدر اسم لواد وبئر يقع بالقرب من المدينة جرت عندها موقعة بين المسلمين من النازلين بالمدينة بعد هجرتهم إليها وبين قريش من أهل مكة الذين كانوا يكيدون للمسلمين ويصادرون أموالهم ويقطعون عليهم الطريق، فرد المسلمون على خطتهم هذه بالإغارة على قافلة لأبى سفيان، عائدة من الشام، فدعا ذلك إلى شن الحرب بينهما لأول مرة وذلك فى يوم الجمعة ١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة (الموافق ١٣ مارس ٦٢٤م). وكان عدد المسلمين حينئذ ٣١٣ رجلاً والمشركين ٩٥٠.

وبدأ القتال فى هذه المعركة بمبارزة فردية اشترك فيها من جانب المسلمين حمزة بن عبد المطلب عم النبىﷺ وعلى ابن أبى طالب فقتلا غريمهما. وهناك من المؤرخين الذين أكدوا أن هذه المبارزة شارك فيها فى البداية أربعة من المسلمين وأربعة من المشركين ثم التقى الجمعان، وقد استمرت المعركة إلى آخر النهار حين انسحبت قريش بعد هزيمتها. وأسفرت بدر عن مقتل أبى جهل وأمية بن خلف من زعماء قريش وأَسْر سبعين آخرين.

وأضافت تلك الموسوعات أن بدراً شهدت أيضاً الغزوة الأولى والمعروفة تاريخياً باسم غزوة صفوان وهى التى وقعت فى شهر ربيع الأول عندما خرج رسول الله ﷺ لطلب أحد المشركين ويدعى كرز بن جابر الفهرى ومعه لواء يحمله على بن أبى طالب (٢).

---

(١) معجم ألفاظ القرآن ج (١) - من الهمزة إلى الياء.

(٢) محمد رسول الله - محمد رضا.

أما المقصود بوادى بدر وهو المكان الذى جاء ذكره فى القرآن الكريم فهو أرض معركة بدر الكبرى السابق الإشارة إليها.

هذا وقد حرص العديد من المؤرخين على الكتابة عن وادى بدر ومعركته الشهيرة كما حرص عدد آخر منهم على زيارة هذا الوادى وكان من بين هؤلاء الدكتور محمد حسين هيكل الذى كتب عنه يقول: إن بدراً كانت من قبل ظهور الإسلام إحدى مواسم العرب الذين يذهبون إليها ويحتفلون خلال تواجدهم فيها بنحر الذبائح وشرب الخمور، كما كانت كذلك سوقاً من أسواق العرب فى الجاهلية.

وحين يُذكر وادى بدر ومعركته الشهيرة كان لا بد وأن نتذكر كذلك ما عُرف عن مكان العدوة القصوى والعدوة الدنيا، ثم مكان التقاء الجمعين ومقابر شهداء بدر ومكان دفن المشركين فى القليب، ذلك المكان الذى وقف أمامه رسول الله ﷺ يتحدث إلى موتى هؤلاء المشركين.. كما جاء فى كتب السيرة النبوية، ثم مكان العريش الذى إقيم لرسول الله آنذاك ومكان الماء الذى تجمع حوله المسلمون فى بدر من قبل أن تبدأ المعركة.

وفى رحلته إلى كل هذه الأماكن التى ارتبطت ببدر قدم لنا الدكتور محمد حسين هيكل وصفاً دقيقاً لها بدى فى قوله: إن القليب الذى دفن به المشركون يقع بين العدوة القصوى وبين قبور الشهداء.. والعدوة القصوى المقصودة فى أحداث بدر هى إذن هذه الهضبة القائمة هناك فى الطرف المقابل إلى حيث تقوم زاوية السنوسى، أما العدوة الدنيا فتقع بين زاوية السنوسى وقبور الشهداء، وتقوم على مقربة من هذه العدوة الدنيا هضبة أشار إليها دليلنا وقال: هذا قوز على.. وسألت ما القوز، فقال: إنه الجبل القليل الارتفاع، وأن هذا الجبل هو الذى رأى علىّ رضى الله عنه المشركون وأخبر النبىّ بهم، وأما العريش الذى بناه المسلمون لرسول الله ﷺ، ففى مكانه الآن مسجد يسمى مسجد العريش [1].

(١) فى منزل الوحى - د . محمد حسين هيكل.

** بابل إحدى بلاد السحر القديم:

من المدن القديمة التى أشار إليها القرآن الكريم، مدينة بابل بالعراق باعتبارها كانت إحدى قلاع السحر فى هذا الزمن القديم، وجاء ذكرها فى كتاب الله فى الآية (١٠٢) فى سورة البقرة وفى قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾.

وتقول كتب التاريخ والجغرافيا عن هذا المكان: إن بابل هى مدينة قديمة تقع على شاطئ نهر الفرات وعلى مسافة ١٦٠ كم جنوب شرق بغداد، وكانت حاضرة الساسانيين وهم حكام الفرس. كما قامت بهذه المدينة الدولة البابلية. وكان من أشهر حكامها «حمورابى» ، وفيها ظهر كل من هاروت وماروت اللذين علما الناس السحر بها.

ويبدو أن هؤلاء السحرة قد أقاموا بها مبان عجيبة عرفت على مر الزمن باسم إحدى عجائب الدنيا السبع وكانت مبان معلقة ومشهورة.. وتعرف بابل كذلك باسم أرض الكلدانيين، حيث تقول إحدى الموسوعات المعارفية: إنها كانت تحتل ضفاف نهر دجلة والفرات حيث العراق حالياً.. ويجاورها من الشمال بلاد الآشوريين الذين دخلوا مع بابل فى نزاع وحروب انتهت باستيلاء الآشوريين عليها فى القرن الثانى ق.م. وبذلك تحولت إلى ولاية أشورية، إلا أنه فى عام ٦٢٥ ق.م ظهر زعيم بابلى يدعى «نابوبد لاسر» وأعلن استقلال بلاده، ثم خلفه ابنه «بختنصر» الذى أصبح أعظم ملوك الشرق حيث امتدت فتوحاته إلى الشام وفلسطين.

ومن ثم قضى على دولة الإسرائيليين وأحرق معابدهم وبعثهم أسرى إلى بابل، ولم يفك أسر هؤلاء اليهود داخل هذه المدينة إلا استيلاء الفرس عليها بقيادة ملكهم كورش فى عام ٥٣٨ ق.م.

ونحن نقرأ فى التاريخ كثيراً عما سمى آنذاك بالأسر البابلى الخاص بهؤلاء اليهود الذين أخذهم بختنصر إلى بلاده بعدما استولى على مملكتهم، أورشليم بفلسطين .

وعلى أية حال فما زالت مدينة بابل قائمة إلى اليوم بجوار مدينة الحلة الحديثة بالعراق، وكانت فى الماضى من أغنى وأفخم عواصم دول الشرق القديم، ولقد ضربوا بها الأمثال فى الفخامة والبذخ حتى قيل إن خرابها كان بسبب إسراف أهلها، كما اشتهرت بابل كذلك بحدائقها المعلقة التى اعتبرها المؤرخون، إحدى عجائب الدنيا السبع وهى تنسب إلى الملكة «سميراميس» زوجة الملك بختنصر قاهر اليهود.

** الأحقاف ومساكن قوم عاد:

حين يأتى ذكر الأحقاف، لا بد وأن نتذكر على الفور نبى الله هود عليه السلام وقومه من قبيلة عاد، ذلك لأن الأحقاف كمكان أو أماكن مشهورة ذكرها الله تعالى فى كتابه العزيز قد ارتبطت بشدة بأحداث رسالة هذا النبى الكريم، والذى بعثه رب العالمين لهداية قوم عاد الذين اتخذوا منازلهم داخل الجبال، ظناً منهم أن هذه المساكن القوية العالية شديدة البأس يمكن أن تحميهم من عذاب الله إذ هم عصوا نبيهم وخرجوا عن الطريق المستقيم.

ولا شك أنه فى ذكر هذه القصة وارتباطها بأماكن شديدة البأس والقوة والمنعة فيه عبر عظيمة، إذ لم تغن عنهم هذه البيوت من الله شيئاً .. ومما يشير إليه الجغرافيون والمؤرخون أيضاً وفى هذا السياق أن الأحقاف كانت جزءًا أصيلاً من منطقة الحجر .. تلك المنطقة التى أقام بها فيما بعد قوم ثمود.. وهى كذلك المكان الذى شهد نهايتهم حين دعى عليهم كل من هود وصالح عليهما السلام.

أما بالنسبة لهذا المكان المشهور فى كتاب الله فقد جاء ذكره فى سورة كاملة تحمل اسم الأحقاف ورقمها فى المصحف الشريف ٤٦ ضمن الجزء السادس والعشرين وهناك بعض الجغرفيين الذين حاولوا تحديد الموقع الجغرافى للأحقاف، فقالوا إنها كانت توجد فى شمال حضرموت، وكانت تشتهر بالقصور والأماكن المرتفعة.. وكان يسكنها قوم ـ كما ذكر لنا ذلك الإمام الراحل الدكتور عبد الحليم محمود ـ قد كفروا بالله وبرسوله. ولم يستجيبوا لهذه النعم ولا لتهديد نبيهم، إذا استمروا يتبعون أهواءهم فأخذوا يبنون على الروابى والمرتفعات قصوراً كانت آيات فى الفن

ويصنعون من أدوات الزينة والترف كل ما تهفوا إليه النزعات وتتطلبه الأهواء [١].

غير ذلك فقد أفرد لنا القرآن الكريم حديثا مستفيضاً كما يقول الدكتور أحمد شلبى عن مساكن قوم عاد وأحوالهم وجسامة أبدانهم وقوتهم وخصب الحياة عندهم وتمسكهم بالكفر والعصيان.[٢]

إن الله تعالى قد ذكر الأحقاف وأحوال أهلها فى سورة الأحقاف وفى قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ﴾ (الآية ٢١).

والحقف فى اللغة هو المعوج من الرمل، وليس بالضرورة أن يقتصر إطلاق هذا الاسم على المنطقة الموجودة إلى الشمال الشرقى من مدينة حضرموت، شرق عدن، بل من الممكن أن يطلق هذا الاسم على أى مكان به رمل عظيم. [٣]

ورغم أن هناك اتفاق على مكان الأحقاف جغرافيا.. وهو كما ذكرنا بالقرب من مدينة حضرموت.. إلا أن هناك بعض المصادر التى رأت أن هذا المكان يوجد شمال غرب شبة الجزيرة العربية وفى الجزء المجاور لشرق سيناء. ومع الأرجح يوجد بالفعل فى الشمال الشرقى إلى حضرموت بدليل وجود قبر نبى الله هود عليه السلام فى هذه المنطقة.

** الحجر.. وثمود قوم صالح:

فى كتاب الله العزيز جاء ذكر ثمود مرادفاً أو تابعاً لذكر عاد وذلك كما جاء فى قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ الأعراف:(٧٤).

هذا الترادف جعل بعض المفسرين يربطون بين هاتين القبيلتين وجعلوا بينهما أبناء عمومة أو نبوة.

ويؤكد الدكتور رشدى البدراوى أن كلمة خلفاء لا تعنى أبداً وبالضرورة النبوة، ورغم أن عاد وثمود أولاد عم ولكن قبيلة ثمود عاشت إلى ما بعد هلاك عاد، فهم من ناحية الزمن قد خلفوهم وأصبحوا خلفاء لهم.

(١) مع الأنبياء والرسل - د. عبد الحليم محمود.
(٢) مع أنبياء الله - د. أحمد شلبى.
(٣) قصص الأنبياء والتاريخ - ج (١) د. رشدى البدراوى.

والدكتور البدراوى يناقش هذا النسب لأن البعض من المفسرين قد وجدوا هذه القرابة مبرراً للقول بأن الأحقاف مكان عاد تقع فى الشمال الغربى للجزيرة العربية. مع أن الحجر وفق الإجماع وهو مكان إقامة قوم ثمود يقع بين الحجاز وتبوك فى الشمال الغربى للجزيرة العربية شرق خليج العقبة عند اتصاله بالبحر الأحمر.

ومما يؤكد وجود الحجر المقصود فى هذه الآية والمرتبط بقوم ثمود ما ذكره الإمام أحمد عندما قال: حدثنا عبد الصمد، حدثنا صخر بن جريرة بن نافع بن عمر قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس وهو ذاهب إلى تبوك فى سنة تسعة من الهجرة نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود، فاستقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها ونصبوا لها القدور، فأمرهم النبىّ ﷺ فأحرقوا القدور وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم النبىّ حتى نزل على البئر التى كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال رسول الله ﷺ : «إنى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم».

وفى موضع آخر قال الإمام أحمد أيضاً: «حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر، عن عبد الله بن عثمان بن خيثم ، عن أبى الزبير عن جابر قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فكانت (يعنى الناقة) ترد من هذا الفج وتصدر فى هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم فعقروها فأخذتهم صيحة أهمد الله من تحت أديم السماء منهم.

إذن هذه الأحاديث تؤكد أن الرسول الكريم قد مر بها وهو فى طريقه إلى غزوة تبوك، ولذلك فهى فى المكان القريب من مدائن صالح.

ولذلك ووفق إجماع المفسرين والشراح وكتاب السيرة.. فإن أصحاب الحجر هم قوم ثمود أو قوم صالح، وأنهم كذلك أصحاب الناقة.. الذين شملهم العذاب بعدما عقروها رغم تحذير نبيهم صالح لهم بألا يفعلوا ذلك، وكان جزاؤهم أن أخذتهم الصيحة مصبحين فهلكوا جميعاً.. إلا نبيهم الكريم، وبعض أتباعه من الذين آمنوا بالله العظيم واستجابوا بدعوته.

ولقد حاول الكثير من المفسرين والمؤرخين الحديث بالتفصيل عن ذلك الحجر

ومكان قوم ثمود، فقالوا بخلاف ما ذكرناه آنفاً ووفق ما سجله الدكتور أحمد شلبى أيضاً: أن مساكن ثمود بالحجر كانت بين الحجاز والشام، كما كانت ممتدة إلى وادى القرى ومدائن صالح التى ما زالت معروفة إلى اليوم.. كما أن ديار بنى ثمود تعرف كذلك باسم ديار فج الناقة.

وذكر المسعودى إن حجر ثمود فى الجنوب الشرقى من أرض مدين وهى موازية لخليج العقبة من ناحيته الشرقية، كما ذكروا فى السياق نفسه أن قوم أصحاب الحجر قد دمرهم الله تعالى بالصاعقة وهى الرجفة أو الصيحة وهى البرق الشديد والصوت المرتفع والهزات التى تفوق هزات الزلزال [1].

وعلى أية حال فإن الحجر كمكان مشهور فى كتاب الله قد جاء ذكره فى سورة الحجر الآية رقم (٨٠) وفى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾.

** سبأ.. ومأرب.. والملكة الحاكمة:

وأيضاً .. اكتشفنا ومن خلال متابعة متأينة لما جاء فى القرآن الكريم بشأن سبأ.. وجود نوع من التلازم سواء فى اللفظ أو فى المعنى بين هذا المكان وبين كل من مأرب وتلك المرأة التى حكمت هذه البلاد فى أيام نبى الله سليمان عليه السلام.

ولقد حكى لنا القرآن الكريم القصة بكل تفاصيلها فى سورة النمل، مشيراً فى السياق نفسه إلى دور أحد الطيور فى اكتشاف سبأ والمرأة التى كانت تحكم أهلها آنذاك، والمدونة تاريخياً باسم الملكة بلقيس.. أو ملكة سبأ ومأرب، التى كان قومها يسجدون للشمس من دون الله، واتباعها وإياهم ذلك الشيطان الذى زين لها ولهم أعمالهم مما ساهم فى خروجهم عن طريق الإيمان، الأمر الذى دعى نبى الله سليمان عليه السلام بأن يطلب ممن كانوا حوله ضرورة استطلاع أحوالهم من أجل دعوتهم للهداية وعبادة رب العالمين. وما كان من أمر ذلك العبد الصالح الذى كان عنده علم من الكتاب والذى أحضرها وعرشها إلى حيث كان يقيم سليمان عليه السلام فى فلسطين من أجل تأكيد دعوتها إلى رب العالمين.

(١) د. أحمد شلبى - مصدر سابق.

ولعل ذلك يبدو بوضوح فى قوله تعالى فى سورة النمل : ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ(٤٠)﴾ (سورة النمل: ٣٨ - ٤٠) .

هذا وكما ذكرنا فإنه جانب فقط من جوانب قصة هذه المرأة التى أسلمت لرب العالمين حين استقدمها سليمان عليه السلام، أما الجانب الآخر فيتعلق بالمكان نفسه وهو ممكلة سبأ وما ارتبط به من أماكن أخرى مثل مأرب، وهو ذلك السد المشهور فى التاريخ.

ويؤكد المؤرخون أن كلمة سبأ كمكان مشهور فى كتاب الله قد اشتق اسمه من قبيلة بن ريان، والتى كانت تحكمها الملكة بلقيس بنت شراحبيل بن مالك بن ريان والتى ورثت الحكم عن أبيها. (١)

وسبأ هذه فى الأصل وكما يشير بذلك شيخ الأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوى هو اسم لسبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، ثم صار هذا الاسم بعد ذلك اسماً لحى من الناس أو اسماً لقبيلة أو لمدينة تعرف بمأرب باليمن.. بينها وبين صنعاء العاصمة.. مسيرة ثلاث ليالى.

فى حين أورد لنا معجم ألفاظ القرآن الكريم والذى أخرجه مجمع اللغة العربية فى جزئه الأول أن كلمة سبأ تدل على دولة ذات حضارة قديمة فى شرق اليمن، وفى المنطقة المعروفة الآن بمأرب. هذه الحضارة عاشت أزهى عصورها فى القرن العاشر قبل الميلاد وباسمها توجد سورة فى القرآن الكريم تعرضت لشىء من تاريخها وحضارتها.

لقد ذكر القرآن الكريم كلمة سبأ كدليل على هذا المكان المشهور فى كتاب الله فى سورتين الأولى فى سورة النمل الآية (٢٢) والثانية فى سورة سبأ الآية (١٥) .

---

(١) القصة فى القرآن - ج (١) د. محمد سيد طنطاوى.

وحين تحدث ابن كثير عن سبأ كمكان مشهور فى القرآن الكريم قال نقلا عن الثعالبى: أن قوم اليمن كان لهم ملك فلما مات ملكوا عليهم رجلاً فعم الفساد فتزوجته بنت الملك السابق (بلقيس) ولكنه ظل فى فساده فقتلته فملكها الناس عليهم.

ويُروى أن قوله ﷺ «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة». يرتبط بهذه الملكة، أما قوله تعالى : ﴿وأتيت من كل شئ ولها عرش عظيم﴾فإنه يوضح أيضاً صور الجلال والعظمة لهذه الملكة وما كان من شأن سريرها الذى قيل إنه كان مزخرفاً بأنواع من الجواهر واللالئ والذهب والحلى الباهر، فإذا ما كان هذا هو حال قصرها وسريرها فما بالنا بالمدينة التى أسستها وأقامت فيها تلك الآبُهة والمعروفة بسبأ. إنها مدينة وفى تصورنا لم نأخذ حظها من البحث التاريخى أو التنقيب أثرياً، بدليل وجود أثر عظيم لا يزال يتردد صداه على ألسنة المؤرخين والرواة وهو سد مأرب الكبير وتلك القرية أو المدينة التى شُيد بها. فقد كانت تتمتع بأعظم نعمة وهبها الله للإنسان من خلال ذلك السد الكبير الذى كان مصدر خير وبركة ونماء على أهلها.

وهناك حكايات اقتربت كثيراً من الخيال حيال الحديث عن هذا السد الذى دمره رب العالمين إنتقاماً من هؤلاء الذين كفروا بالنعم وانحازوا فى غيهم إلى الشياطين بدلاً من عبادة الله الكريم باعتباره إله واحد لا شريك له، بل وكانوا كذلك يعبدون الشمس من دون الله.

ووفق ما جاء فى القرآن الكريم فقد آمنت ملكتهم بلقيس بعد رحلتها المشهورة إلى القدس للقاء نبى الله سليمان عليه السلام . وبالتالى أقرت بوحدانية الله .

وهناك من المصادر التى أكدت أن سليمان عليه السلام قد تزوج من هذه الملكة بعدما أعلنت إسلامها وإيمانها بالله وتركها عبادة الشمس .. ويقول بعض المؤرخين أن سيل العرم الذى دمر سد مأرب ربما هاجم هذه القرية بعد ما توفيت هذه الملكة وعودة أهلها من جديد إلى عبادة الشيطان من دون الله.

وهناك فريق آخر من هؤلاء المؤرخين الذين حين تحدثوا عن سبأ، وأشاروا فيما قالوه إلى أن أصل أهل سبأ هم من الذين سكنوا اليمن مؤكدين فى هذا السياق على أن هؤلاء السبئيين أصلهم من نسل قحطان من الذين نزلوا أرض اليمن وأقاموا هناك بجوار قبيلة بنى معن، ثم اختلطوا بهم وبغيرهم من أهل الجزيرة العربية.. كما اقتبسوا اللغة العربية.

ولقد استمر هؤلاء السبئيون فى حكم اليمن حتى عام ١١٥ق.م حتى ضعفت تجارتهم. عندئذ بدأ فرع آخر من قبيلة سبأ يظهر فى الوجود وهم المعروفون تاريخياً باسم ريدان.. هؤلاء السبئيون الذين كانوا يسكنون إلى الجنوب من سبأ والذين اتخذوا من مدينة ظفار عاصمة لهم كان ملكهم يدعى ملك سبأ وريدان، ولما تداعى سد مأرب انتقل ثقل الحكم إلى الجنوب وسمى بذلك ملك سبأ وريدان وحضرموت. (١)

** سيناء أرض الديانات السماوية:

كما هو معروف فى تاريخ الديانات البشرية فإن أرض سيناء كانت بالفعل الأرض التى شهدت جانباً من أحداث الديانات الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلامية.. بل وكانت هى نفسها تلك الأرض التى زارها بل وأقام بها هؤلاء الأنبياء الثلاثة موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام..

من هنا جاء تكريمها فى كتاب الله بذكرها بالاسم صراحة تارة وتلميحاً تارة أخرى.. وكلنا نعرف أيضاً أن أرض سيناء هى تلك الأرض التى احتضنت الديانة اليهودية فى طورها الأول والأخير وحتى من قبل أن تنتقل إلى فلسطين .. وهناك من يقول بأن كل من موسى عليه السلام وأخيه هارون قدماتا فوق هذه الأرض الطيبة، بل ودفنا فوق رمالها.. كما أنها شهدت فترة عقاب بنى إسرائيل الذين حكم الله عليهم بالتيه فى صحرائها مدة أربعين عاماً عقاباً لهم على عصيانهم لنبيهم وتحولهم إلى عبادة الأصنام من دون الله.

---

(١) أنبياء من إسرائيل - ج ٥ - د. رشدى البدراوى.

وأما بالنسبة للديانة المسيحية فقد شهدت أرض سيناء مقدم كل من عيسى عليه السلام وأمه فراراً من اضطهاد اليهود والرومان آنذاك فى أرض فلسطين. وقد هداهما الله إلى هذه الأرض الطيبة كى تكون معبراً آمناً أوصلهم إلى أرض مصر التى عاشا بها لسنوات ثم عادا من جديد إلى أرض فلسطين، وكان عبورها فى هذه المرة أيضاً من فوق أرض سيناء .. ثم أتاها رسولنا الكريم ﷺ فى رحلة الإسراء والمعراج وقد أمره أمير الوحى جبريل عليه السلام أن ينزل كى يصلى ركعتين فى الموقع الذى كلم الله فيه موسى تكليماً.

ومما لا شك فيه فإن أعظم تكريم لهذه البقعة الطاهرة من أرض مصر..قد جاء عندما شهدت تجلى رب العالمين وإبتداء الوحى بكلماته تعالى التى تلقاها نبيه الكليم موسى عليه السلام. ثم ذلك الجبل الذى تجلى فوقه نور الله فتصدع وانهار.

إن أرض سيناء قد حملت وما زالت تحمل فى جنباتها أسراراً كثيرة ومتنوعة فيما يخص البشرية وتاريخ الأديان. ولقد ذكرها رب العالمين كما سبق وذكرنا صراحة فى كتابه العزيز فى قوله تعالى: ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ الآية (٢٠) فى سورة المؤمنون .. كما ذكرها رب العالمين كذلك بالتلميح فى قوله فى سورة التين ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ﴾.

ولقد حفل الطور أو جبل الطور باهتمام بالغ من جانب القرآن الكريم خاصة فى علاقته بقصة موسى عليه السلام، ولسوف نفرد له حديثاً خاصاً فى كُتب قادمة عند الحديث المفصل عن علاقة أنبياء الله بالأماكن المشهورة .

ومما لا شك فيه أن هناك عشرات الكتب القديمة والحديثة التى تناولت بالتفصيل الحديث عن أرض سيناء وثرواتها وخيراتها وتاريخها، وما كان من أمرها وأمر من ارتبطوا أو مروا بها، ومما قاله البعض فى هذا السياق أن اسم سيناء قد يكون مشتقاً من كلمة «سين» إله القمر الذى كان يعبده البدو فى تلال سيناء [١].

(١) قصص الأنبياء والتاريخ ج (٤) - د. رشدى البدراوى.

** العقبة .. مكان البيعتين:

ذكر لنا كتاب الله العزيز العقبة كمكان مشهور فى القرآن الكريم فى آيتين فى سورة البلد، الآية (١١) فى قوله تعالى ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ(١١)﴾ وفى الآية (١٢) فى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ﴾.

وعندما لجأنا إلى التفسير بخصوص هاتين الآيتين بحثاً عن موقع هذه الكلمة وهل المقصود بها مكان بعينه أو غير ذلك.. وجدنا أن عالماً جليلاً مثل الدكتور أحمد شوقى إبراهيم يخبرنا فى كتابه الجديد : «فتح العليم فى تفسير القرآن الكريم».. أن الاقتحام فى اللغة فى هذه الآية يعنى الدخول بشدة فى الأمر كما تعنى الطريق الوعر فى الجبل (١).

ويبدو أن أهل مكة فى بداية دخول الإسلام أو من قبله بسنوات قليلة قد اتخذوا العقبة اسماً للدلالة على مكان بعينه.. اتسم بالوعورة والصعوبة .. خاصة لارتباطه بالجبال المحيطة آنذاك بالبلد الأمين .. بدليل أن هذا المكان قد اشتهر فى تاويخ الإسلام لأنه شهد ثلاث وقائع تاريخية مهمة اثنتان منهما كان لهما أكبر الأثر فى نشر دين الله خارج مكة، بل وكانا البداية الساخنة نحو انطلاق هذا الدين ليس خارج مكة وحدها، بل وخارج الجزيرة العربية كلها.. الواقعة الأولى وهى بيعة العقبة الأولى.. إذ تم فى هذا المكان لقاء رسول الله ﷺ بوفد من الأوس والخزرج من أهل يثرب حيث عرض عليهم الإسلام.. فتأثروا به وحملوه داخل أنفسهم عندما رجعوا إلى أهليهم فى يثرب.

ويقول المؤرخون إن موقع العقبة هو على يسار القاصد منى من مكة .. وقد شهد هذا المكان ذاته توقيع بيعة العقبة الثانية أو بيعة النساء، والتى على إثرها بعث رسول الله ﷺ مصعب بن عمير بن بن هاشم إلى المدينة كى يعلم أهلها القرآن والإسلام.

وبعد توقيع هذه الاتفاقية فى العقبة الثانية، انطلق بعدها الإسلام حيث وجد طريقاً جديداً للانتشار داخل المدينة المنورة والتى أخذت مكانة ما كان يسمى قبلها بيثرب.

---

(١) فتح العليم فى تفسير القرآن الكريم - ج الثلاثون جزء عم - د. أحمد شوقى إبراهيم.

وبخلاف هذين الحادثين الهامين كان هناك حادث ثالث سبقهما ألا وهو ما ارتبط بحادث ذبح إسماعيل عليه السلام، عندما انطلق به أبوه إبراهيم أبو الأنبياء ناحية الجبل من أجل أن ينفذ مشيئة الله والتى تجلت له فى رؤيا جاءته عدة مرات. ولقد شهدت العقبة آنذاك واقعة رجم إبراهيم عليه السلام للشيطان الذى أراد أن يفسد على هذا النبى مهمته المقدسة، وقد ظلت شعيرة رجم الشيطان منذ ذلك التاريخ قائمة إلى يومنا هذا.. وهى المعروفة فى شعيرة الحج باسم جمرة العقبة الصغرى.

ولا يزال مكان هذه العقبة موجوداً حتى اليوم والحجيج يقفون عندها كل عام من أجل تذكر حادث هذا الذبيح وما كان من أمر ذلك الشيطان تجاه إبراهيم عليه السلام . كما أنهم يشاركون هم أيضا فى هذه المناسبة فى رجم الشيطان وفى نفس المكان الذى شهد كل هذه الأحداث.

ونظراً لأهمية هذا المكان فى الإسلام وارتباطه بأحد شعائر الحَج فقد اهتم بالحديث عنه الكثير من المؤرخين خاصة فى سياق حديثهم عن الحج وشعائره، ولقد أجمعوا تقريباً على أن العقبة إنما هى مجرد شق يقع بين مكة ومنى، وفيه التقى رسول الله ﷺ بوفد يثرب الذين عرض عليهم الإسلام، ثم جاءوا مرة أخرى وكان عددهم فى هذه المرة ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين .. حيث طالبهم رسول الله ﷺ بأن يبايعوه بيعة النساء، وهى البيعة التى أشار إليها القرآن الكريم فى سورة الممتحنة والتى تبدأ بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ..﴾ ويبدو تيمناً بهذا الاسم العظيم.. فقد أطلق أهل فلسطين والشام على أحد مدنهم اسم العقبة.. وربما يكون سبب هذه التسمية مرتبطاً كذلك بالصعوبة والوعورة الخاصة به. سواء كانت وعورة صخرية أو مائية .

** مكة.. ذلك البلد الحرام:

رغم أن مكة ، ذلك البلد الحرام والذى استوعب فوق أرضه أعظم قصص وتاريخ الديانات فى العالم منذ وطأت رمالها أقدام إبراهيم الخليل عليه السلام، وزوجته هاجر، وحتى ظهور نبى الرحمة محمد عليه الصلاة والسلام، فإن القرآن الكريم لم يذكرها إلا مرة واحدة باسم مكة وذلك فى سورة الفتح الآية (٢٤) وفى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾.

ويكفى هذا البلد شرفا أن عاش فيه نبى الله إبراهيم ثم أعقبه ابنه إسماعيل والذى جاء من ذريته سيد الخلق أجمعين محمد رسول الله.

ومنذ أن دبت أواصر الحياة فى جسد ورمال هذه البقعة الطاهرة على إثر تفجر ماء زمزم، فقد تحولت إلى منطقة جذب لكثير من قبائل العرب الذين استوطنوها وأقاموا فيها، وعمروها إلى اليوم.

وهناك العشرات من المؤرخين ومن علماء الجغرافيا الذين أخضعوا دراساتهم العلمية والعملية والأكاديمية لدراسة هذا المكان الأمين من كافة الجوانب، ليس هذا فقط، بل لقد استأثر هذا المكان بنصيب الأسد فى دراسات الأديان خاصة السيرة النبوية وتاريخ الإسلام وظهوره، ذلك لأن مكة قد شهدت أولاً مولد رسول الإنسانية محمد بن عبد الله ثم إقامة عشيرته وأسرته من قبل هجرته . وشهدت كذلك انبعاث نور نبوءته وتجلى جبريل عليه السّلام على هذه الأرض الطيبة، هذا بخلاف وجود الكعبة المشرفة والحرم المكى الشريف والذى له تاريخ طويل وناصع وعظيم.

ولا شك يرتبط بهذا المكان الأمين كل عام قلوب ملايين المسلمين فى كل بقاع الأرض من الذين يعيشون على أمل زيارته إما معتمرين أو حاجين وكلهم يمنون أنفسهم بهذه الزيارة التى يشتاق إليها قلب كل مسلم. كما يمنون أنفسهم بزيارة ما حولها من أماكن ارتبطت برسالة الإسلام وظهوره وما أقيم بها من مساجد وأماكن عبادة شهدت جهود الصحابة من الذين جاهدوا من أجل نشر هذا الدين الحنيف.

إضافة إلى ذلك هناك ما حول مكة من أماكن أخرى شهدت كذلك إرهاصات هذا الدين الحنيف وبدايات ظهوره مثل غار حراء فى جبل النور وغار ثور فى جبل ثور ، وطريق الهجرة ومكان الخندق. وأول مسجد أقيم فى الإسلام.

إن هذا البلد الأمين قد حظى بما لم يحظ به بلد آخر من الدراسات الميدانية والاكاديمية، الدينية والعلمية، ولسوف يظل كذلك لأنه يرتبط بأعظم رسالة سماوية ألا وهو دين الإسلام.. ومن المعروف أن مكة جاءت فى كتاب الله أيضا باسم بكة.

** مدين.. شعيب وموسى عليهما السلام:

هذا المكان الأمين الطاهر والمعروف باسم مدين، شهد خلافاً كبيراً ولا يزال هذا الخلاف قائماً إلى اليوم.. وذلك بشأن النبى الكريم الذى ظهر فى هذا المكان لهداية

قومه ودعوتهم إلى عبادة الله بدلاً من عبادة الشيطان؛ ألا وهو نبى الله شعيب والذى بعثه الله تعالى لأهل مدين هادياً لهم وبشراً ونذيراً!.

ويشتد هذا الخلاف أكثر حين تأتى سيرة نبى الله موسى عليه السلام والذى جاء إلى مدين هرباً من بطش فرعون. إلا أن هناك من أراد من المؤرخين التوفيق بين هذين الفريقين المختلفين مثل ابن كثير فيما كتبه فى قصص الأنبياء حيث أورد الرأيين المخالفين ونراه فيما كتب قد رجح الرأى القائل بأن الشيخ الذى لجأ إليه موسى عليه السلام حين هروبه من مصر، لم يكن هو شعيب النبى الكريم الذى بعثه الله لهداية قومه ، وفى توفيقه لهذ ا الخلاف قال ابن كثير إن صاحب موسى هو ابن أخ شعيب النبى وأنه سماه باسمه. (١)

ويعتبر الدكتور أحمد شلبى من المؤرخين المعارضين لرؤية البعض والتى تقول إن شعيب النبى هو ذلك الشيخ الذى لجأ إليه موسى عليه السلام وتزوج من إحدى ابنتيه. وهو يقول فى ذلك إن الدراسات الدينية والتاريخية أثبتت أن شعيب النبى ليس من بنى إسرائيل، ذلك لأنه لم يرد له ذكر فى سفر التكوين الذى ذكر كل شىء عن إبراهيم عليه السلام وذريته إسحاق ويعقوب وأولاده، وليس شعيب هو ذلك الشيخ الذى لجأ إليه موسى عندما فر من المصريين.

ويستند الدكتور شلبى فى ذلك على أن القرآن الكريم لم يذكر اسم شعيب عند الكلام عن هذا الشيخ الذى لجأ إليه موسى عليه السلام.

وعلى أية حال فلن ندخل أنفسنا فى بيان تفاصيل أكثر عن هذا الخلاف لأن ما يعنينا فى المقام الأول هو الحديث عن مدين كمكان أمين جاء ذكره فى كتاب الله تعالى.

ويؤكد الدكتور أحمد شلبى فى سياق حديثه عن مكان مدين أنه كان يوجد فى أطراف الجزيرة العربية على مقربة من الشام على امتداد خليج العقبة، ولما كان موقعه فى طريق التجارة العربية الصاعدة والهابطة فقد اشتغل أهلها بالتجارة واتجهوا لتطفيف الميزان رغبة فى الإسراع فى الربح كما كانوا يهددون المارة إلا إذا دفعوا لهم

(١) أنبياء الله - د. أحمد شلبى - مصدر سابق.

إتاوة، لذلك بعث الله لهم نبيهم شعيباً من أجل إرشادهم إلى طريق الله المستقيم، ولكنهم عصوه فنالهم الجزاء المبين.

وهناك رأى يستحق التوقف عنده أورده لنا الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى الذى ذكر أن مدين فى الأصل اسم لقبيلة تنتسب إلى مدين بن إبراهيم عليه السلام. وكانوا يسكنون فى المنطقة التى تعرف باسم معان بين حدود الحجاز والشام.

وأضاف : إنهم أيضاً كانوا أصحاب الأيكة، وهى منطقة مليئة بالأشجار كانت مجاورة لقرية معان وكان يسكنها بعض الناس فأرسل الله شعيباً إليهم جميعاً. ولذلك يقول المؤرخون إن نبى الله شعيب قد أرسل رسولاً إلى أمتين إلى أهل مدين الذين أهلكوا بالصيحة وإلى أصحاب الأيكة الذين أخذهم الله بعذاب يوم الظلة.

بقى أن نذكر فى هذا السياق ما جاء فى كتاب الله بشأن هذا المكان المشهور.. فقد ذُكرت مدين عشر مرات فى سور: الأعراف الآية (٨٥) والتوبة الآية (٧٠) وهود الآية (٨٤و٩٥) وطه الآية (٤٠) والحج الآية (٤٤) والقصص الآيات (٢٢ و٢٣ و٤٥) والعنكبوت الآية (٣٦).. معنى ذلك أن مدين جاء ذكرها فى ٥ سور قرآنية وعشر آيات ، لأنه تكرر ذكرها مرتين فى سورة هود وثلاث مرات فى سورة القصص.

وما نريد أن نوضحه هنا أن مدين حين جاء ذكرها فى كتاب الله.. ارتبطت بكل من شعيب وموسى عليهما السلام وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ الآية (٨٥) من سورة الأعراف.

وجاء ذكر شعيب فيما يخص مدين ٥ مرات، كما جاء ذكر موسى عليه السلام فيما يخص مدين أيضاً ٥ مرات .

والحقيقة أننا فيما اطلعنا عليه من مصادر لم نستطع أن نتوصل إلى كون مدين التى ظهر بها شعيب عليه السلام هى نفسها مدين التى لجأ إليها موسى عليه السلام؟! وبالتالى فقد أضيف إلى خلاف العلماء والمؤرخين خلاف آخر حول ماهية هذا المكان وهل هو الذى ارتبط بكل من النبى شعيب وموسى عليهما السلام ؟! أم أنهما مكانين مختلفين، وفى تصورنا أنهما مكان واحد مع اختلاف الشخصية وكذلك الزمان.

** مصر .. تحية من الله وتقدير:

حظيت مصر بتقدير خاص فوق صفحات كتاب الله العزيز وفى العديد من السور والآيات الكريم، وذلك من خلال ارتباطها كمكان مشهور فى تاريخ الديانات السماوية بأكثر من نبى ورسول كريم. بدءاً من إبراهيم عليه السلام ومروراً بأحفاده يعقوب ويوسف وموسى وعيسى، هؤلاء الأنبياء الذين شرفوا هذه الأرض الطيبة سواء بالإقامة بها أو كممر للعبور إلى أماكن أخرى.

ومن أشهر ما أشار إليه القرآن الكريم بخصوص مصر كأرض طيبة وكمكان مشهور ما جاء بشأنها فى قصة يوسف وموسى عليهما السلام، وهناك من المفسرين الذين رأوا فيما ذكره القرآن الكريم عن مصر نوعين من التكريم، الأول لمصر كبلد خلقه الله وميزه بميزات كثيرة، والثانى كحضارة .. أيضاً تميزت بخصوصيات غير مسبوقة.

وفى ذلك يقول الدكتور أحمد صبحى منصور أن مصر التى ذكرت فى سياق قصة يوسف عليه السلام كان لها معنيين .. الأول معنى الوطن الذى يعيش فيه المصريون والثانى هو معنى المدينة المتحضرة. (١)

وعندما نقرأ كتاب الله تعالى نكتشف أن اسم مصر قد جاء ذكره خمس مرات فى ٤ سور شريفة.. هى سورة يونس الآية (٧٨) ويوسف فى الآيتين (٢١ و ٩٩) ثم الزخرف فى الآية (٥١) وفى سورة البقرة فى الآية (٦١). وما جاء ذكره بشأن مصر الوطن أو الحضارة إنما تضمن حديثاً على جانب كبير من الأهمية فيما يخص قصة يوسف وإخوته وأبيه، ثم موسى وقومه من بنى إسرائيل وفرعون وهامان وجنودهما.

ولقد كرم القرآن الكريم مصر، ليس فقط بوصفها كوطن أو كبلد متحضر، بل أضاف إليها كما يقول الدكتور أحمد صبحى منصور وصف الأرض.. حيث عاشت الدولة فيها قوية مهابة فى عصور طويلة موغلة فى القدم وخصوصاً عصر الرعامسة الذى شهد قصة موسى. (٢) ولقد تجلى ذلك فى قول الله تعالى ﴿إن فرعون علا فى الأرض﴾ - ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض﴾..

(١) مصر فى القرآن الكريم - د. أحمد صبحى منصور.

(٢) المصدر السابق.

هذا فى قصة موسى عليه السلام .. وجاء نفس المعنى فى قصة يوسف عليه السلام وفى قوله تعالى : ﴿وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض﴾ - وفى قوله تعالى أيضاً : ﴿إجعلنى على خزائن الأرض﴾.

ولقد تعرض القرآن الكريم للتاريخ المصرى فى مرحلتين مهمتين، إحداهما مرحلة الحكم المصرى الأصيل والثانية مرحلة الحكم الوافد، ففى قصة يوسف كان الهكسوس يحكمون مصر وفى قصة موسى كان الفرعون ممثلاً لمصر والمصريين، وفى هاتين القصتين، حين يأتى ذكر مصر كان لا بد من أن نذكر وفق ما جاء بالقرآن الكريم.. عزيز مصر الذى اشترى يوسف عليه السلام، وكذلك فرعون موسى الذى استضافه فى بيته وهو صغير وما كان من أمره معه حين كبر وكُلِّف بالرسالة السماوية مع أخيه هارون. والقرآن الكريم وكل كتب التاريخ تحدثت بالتفاصيل عن هاتين الشخصيتين إضافة إلى الحديث عن امرأة ذلك العزيز التى احتلت جزءاً مهماً من قصة يوسف، وكذ لك امرأة فرعون التى آمنت بالله رب العالمين خلافاً لما كان عليه الفرعون من شرك، وألوهية مزعومة كان يرددها على قومه الذين أطاعوه!!

ولقد ذكر القرآن الكريم كلمة فرعون أربعاً وسبعين مرة، فهو على حد يعتبر الدكتور أحمد صبحى منصور أكثر المشركين نصيباً فى حديث القرآن .

ومثل أى مكان مشهور سواء فى كتاب الله أو فى الواقع، فإن مصر كوطن أو كحضارة ظلت وسوف تظل.. قبلة الدارسين فى كل فروع العلوم الإنسانية. وأخصها علم الآثار الذى لا يزال ينهل من هذه الأرض الطيبة حقائق واكتشافات يسيل لها لعاب كل العلماء والمؤرخين والدارسين فى كل أنحاء العالم .. وهذا تكريم آخر لهذا المكان المشهور فى كتاب الله.

**** يثرب .. مدينة رسول الله:**

نستطيع أن نؤكد فى سياق حديثنا عن هذا البلد الأمين .. أن يثرب ظلت مدينة هامشية، بلا تاريخ حتى هاجر إليها رسول الله ﷺ واتخذها عاصمة للدولة الإسلامية

بعدما غادر بلدته مكة رغماً عنه، وفى ظل ما تعرض له ودعوته من اضطهاد مشركى مكة ومن كانوا حولها آنذاك.

ولقد تقاسمت هذه المدينة مكانتها العظيمة مع مكة بعدما اختارها رب العالمين كى تكون منزلاً للوحى بالقرآن الكريم الذى كان ينزل على رسولنا الكريم، لذلك يرى الكثير من المفسرين أن قرآن الله العظيم فيه ما هو مكى وآخر مدنى من حيث مكان النزول وظهور جبريل عليه السلام فى هذين المكانين المشهورين، وأماكن أخرى كثيرة أشار إليها العديد من المفسرين.

ولقد توصل العديد من المؤرخين إلى القول بأن يثرب مر إنشاؤها بمرحلتين، الأولى من بداية مولدها الغامض تاريخه والذى لا يمكن تحديده بدقة إلى زمن هجرة رسولنا الكريم، أما المرحلة الثانية وهى التى يسمونها بمرحلة الولادة الجديدة والتى تحققت بهجرة الرسول الكريم وتغير اسمها من يثرب إلى المدينة أو مدينة رسول الله وعاصمة الدولة الإسلامية.

واسم يثرب قد أشار إليه كتاب الله الكريم فى قوله تعالى فى سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ..﴾ (الآية: ١٣).

وهناك نصوص من أحاديث نبوية أشارت إلى نهى رسولنا الكريم عن الاستمرار فى استخدام اسم يثرب واستبداله باسم المدينة.

ويقال تاريخياً فى هذا السياق إن اسم يثرب منسوب لرجل من أحفاد نوح عليه السلام وقد يكون ذلك هو مؤسسها الأول، كما يتردد فى كتب التاريخ اسم العماليق كلما ذكرت نشأة يثرب على أنهم أول من سكنوها.

ومن قبل هجرة الرسول الكريم إليها كان سكانها خليط من القبائل العربية واليهودية، وأن من أبرزهم كل من الأوس والخزرج العربيتين وبنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النضير من اليهود.

وليثرب أو المدينة أسماء كثيرة أخذ فى ترديدها العديد من المؤرخين وذكروها فى كتبهم. فهى دار الهجرة وطيبة والدار وحرم رسول الله والفتح والمحفوظة والجبية.

ولقد استخرج المفسرون هذه الأسماء من القرآن الكريم ومن السنة النبوية الطاهرة، ويكفى المدينة شرفاً أن بها مسجد رسول الله ﷺ وكذلك منازله وزوجاته، بل وقبره الشريف وقبور أصحابه سواء من الذين دفنوا بجواره داخل المسجد النبوى أو ممن دفنوا فى البقيع.

ولمزيد من التكريم ليثرب أو لمدينة رسول الله فقد جاء ذكرها فى كتاب الله العديد من المرات. ففى سورة الأحزاب الآية (٣) جاء لفظ يثرب .. مرة واحدة فقط، وهى المرة الوحيدة أيضا التى يأتى فيها ذكر يثرب فى القرآن الكريم. وذلك وفق ما أشرنا من قبل.

أما لفظ المدينة كمكان مشهور فى كتاب الله فقد كان له الغلبة من حيث التواجد فى القرآن الكريم، إذ جاء ذكرها أربعة عشر مرة فى السور والآيات التالية: الأعراف (١٢٣) - التوبة - (١٠١ و١٢٠) يوسف (٣٠) - الحجر (٦٧) - الكهف (١٩و٨٢)- النحل (٤٨) - القصص (١٥و١٨و٢٠) - الأحزاب (٦٠)- يس (٦٠)- المنافقون (٨). وعندما أعدنا قراءة هذه السور وما جاء بها من آيات ترتبط بلفظ المدينة اكتشفنا أن المقصود منها بالمدينة المنورة هو ما جاء فى سورة الأعراف الآية (١٢٣) وفى سورة التوبة الآية (١٠١و١٢٠) عندما حدثنا رب العالمين عن الأعراب المنافقين من أهل المدينة - وكذلك ما جاء فى سورة الأحزاب الآية (٦٠) عندما حدثنا رب العزة عن المنافقين والمرجفين فى المدينة. وما جاء فى سورة المنافقون الآية (٨) بشأن إخراج الأعز. من أهلها.

إذن حين نعود للإحصاء لبيان ما جاء من ألفاظ تكريمية عن مدينة رسول الله والتى أصلها «يثرب» فى كتاب الله نكتشف أن ما جاء بشأنها فى القرآن الكريم مرتبط بسور الأعراف والتوبة والأحزاب والمنافقون.. وأن بقية ما جاء فى كتاب الله ومرتبط بلفظ المدينة.. إنما قصد به مدن أخرى.

** حنين : يوم الاختبار الأكبر:

من الأماكن المشهورة والتى جاء ذكرها فى كتاب الله والمتعلقة بإحدى المعارك المعروفة فى تاريخ الإسلام .. منطقة أو وادى حنين.. وهو واد فى طريق الطائف إلى

جنب ذى المجاز، والمسافة بين هذا الوادى وبين مكة مسيرة ٣ ليال. هذه الغزوة أو هذه المعركة هى نفسها تعرف تاريخياً باسم غزوة أوطاس . ومن عجيب ما يرويه التاريخ أن هذه المعركة وقعت بعد نجاح المسلمين بقيادة رسولنا الكريم فى فتح مكة. ذلك الحدث التاريخى المهم والذى كان له أكبر الأثر فى تقوية شوكة الإسلام والمسلمين داخل الجزيرة العربية.

ولقد تحصن المشركون الذين بدأوا هذه المعركة وهم من قبائل أشراف هوازن فى قمم جبال حنين وعند مضيق هذا الوادى.. هؤلاء الذين فكروا فى مهاجمة رسول الله وأتباعه من قبل أن يفكروا هم بمهاجمتهم بعدما نجحوا فى فتح مكة. ويقال إنهم كانوا يستعدون لقتال المسلمين قبل فتحهم مكة وذلك حين سمعوا بخروج رسول الله من المدينة وهم يظنون أنه إنما يريدهم.

وقعت هذه المعركة فى ١٠ شوال سنة ثمان من الهجرة الموافق فبراير عام ٦٣٠م، وربما بعد مضى أسبوعين فقط من فتح مكة. كما يقال إن من أسباب هزيمة المسلمين فى هذه المعركة انشغالهم مثلما حدث فى معركة أحد بجمع الغنائم .

والتاريخ يحكى لنا بعض تفاصيل ما حدث والذى نفهم منه أن جيش المسلمين عندما تجمع عند وادى حنين وتأهب فى الخروج على هؤلاء الأعداء فى غبش الصبح خرج عليهم المشركون الذين كمنوا لهم فى شعاب الوادى ومن ثم حملوا عليهم فانكشفوا ثم انشغلوا بالغنائم. وعندما اكتشف المشركون انشغال المسلمين بجمع الغنائم استقبلوهم بالسهام فعادوا منهزمين بعد انتصارهم. ولولا ثبات رسولنا الكريم مثلما ثبت من قبل فى معركة أحد لاستكمل المشركون هذا الانتصار. وكان هذا الثبات رحمة من الله تعالى، وعناية من لدنه..

عندئذ فر المشركون بعد ما أعاد المسلمون تنظيم صفوفهم ووقفوا مع النبى الكريم وعمه العبّاس الذى أخذ ينادى على المسلمين من أجل أن يعودوا إلى أرض المعركة: «يا أصحاب السمرة يا معشر الأنصار». وكانت تلك النداءات ذات مفعول عظيم فى إعادة صفوف المسلمين إلى ما كانوا عليه قبل المعركة.. وبالتالى استداروا لملاقاة هؤلاء المشركين الذين ألقى الله فى قلوبهم الرعب فأخذوا ينشدون النجاة بالفرار.

وقد أسر المسلمون من أعدائهم فى حنين حوالى ٦ آلاف أسير و٢٤ ألف من الإبل وأكثر من ٤ آلاف أوقية من الفضة. ثم أخذ المسلمون بعد ذلك يتابعون مطاردة عدوهم حتى خرجوا من وادى حنين.

ولقد أشار القرآن إلي هذا المكان المشهور وذلك فى قوله تعالى فى سورة التوبة الآية (٢٥) : ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾. وكانت تلك هى الآية الوحيدة التى أشارت لنا إلى مكانة وأهمية حنين في تاريخ الإسلام وفى الأماكن المشهورة.

وبطبيعة الحال.. لو أخذنا نفسر كلمات هذه الآية فسوف نقف على تفاصيل كثيرة فيما كان عليه المسلمون الذين غرتهم كثرتهم وعتادهم ومع ذلك انهزموا لأنهم انشغلوا عن ذكر الله والتمسك بما أشار عليهم آنذاك رسولنا الكريم.

ولولا أن تدخلت رحمة الله وجنوده التى نراها والتى لا تراها لاستكمل المشركون هزيمة المسلمين . والله تعالى يخبرنا بذلك فى الآية التى تلت الآية السابقة وفى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ الآية (٢٦) من سورة التوبة.

ولكى نعرف مقدار الغرور الذى أصاب المسلمين آنذاك تعالوا نعرف بعض الذى ذكره المؤرخون عن حجم قوة المسلمين فى هذه المعركة، ومع ذلك فإن هذا العدد لم يساعدهم على الانتصار.. لقد كانت قوة جيش المسلمين تبلغ ١٢ ألف مقاتل منهم عشرة آلاف من الذين جاءوا من المدينة لفتح مكة و٢٠٠٠ من الذين أسلموا بعد الفتح.

هذا العدد جعل صاحب جليل مثل أبو بكر يقول: «لا نغلب اليوم من قلة» كما كان مع المسلمين ٤٠٠ درع و٣ آلاف رمح. هذه الأعداد الكبيرة التى لم تكن للمسلمين من قبل جعلتهم فى غرور وفى عزة نفس مما كان له أكبر الأثر فى هزيمتهم!